

## كيمياء السعادة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أصدع قوالب الأصفياء بالمجاهدة، وأسعد قلوب الأولياء  
بالمشاهدة، وحلى السنة المؤمنين بالذكر، وجلى خواطر العارفين بالفكر، وحرس  
سواد العباد عن الفساد، وحبس مراد الزهاد على السداد، وخلص أشباح المتقين  
من ظلم الشهوات، ووصفى أرواح الموقنين عن ظلم الشبهات، وقبل أعمال الأخيار  
بأداء الصلوات، وأيد خصال الأحرار بأسد الصلوات.

أحمده حمد من رأى آيات قدرته وقوته، وشاهد الشواهد من فردانيته  
ووجدانيته، وطرق طوارق سرّه وبرّه، وقطف ثمار معرفته من شجر سجده  
وجوده، وأشكره شكر من اخترق واغترف من نهر فضله وإفضاله.

وأومن به إيمان من آمن بكتابه وخطابه وأنبيائه وأصفيائه ووعده ووعيده  
وثوابه وعقابه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً  
عبده ورسوله بعنه لأصلاب الفسقة والفجرة قاصماً، ولعمرى الجاحدين والمارقين  
قاصماً، ولباغي الشك والشرك قاهراً، ولأتباع الحق والإحسان ناصراً؛ فصلوات  
الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الناس نسخة الكيمياء، ويعلمونهم كيف يجعلون القلب في كُور<sup>(١)</sup> المجاهدة، وكيف يطهرون القلب من الأخلاق المدمومة، وكيف يؤديه لطرق الصفاء كما قال سبحانه وتعالى: ﴿هو الذي يمث في الأمين رسلاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [الجمعة: ٢]. أي يطهرهم من الأخلاق المدمومة ومن صفات البهائم، ويجعل صفات الملائكة لباسهم وحليتهم.

ومقصود هذه الكيمياء أن كل ما كان من صفات النقص يتعمى منه، وكل ما يكون من صفات الكمال يلبسه. وسر هذه الكيمياء أن ترجع من الدنيا إلى الله كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وتبتل إليه تبتلاً﴾ [الزمل: ٨] وفضل هذه الكيمياء طويل.

## عنوان معرفة النفس

اعلم أن الكيمياء الظاهرية لا تكون في خزائن العوام وإنما تكون في خزائن الملوك، فكذلك كيمياء السعادة<sup>(١)</sup> لا تكون إلا في خزائن الله سبحانه وتعالى؛ ففي السماء جواهر الملائكة، وفي الأرض قلوب الأولياء العارفين، فكل من طلب هذه الكيمياء من غير حضرة النبوة<sup>(٢)</sup> فقد أخطأ الطريق، ويكون عمله كالدنيا البهوج<sup>(٣)</sup>، فيظن في نفسه أنه غني وهو مفلس في القيامة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فكشفنا عنك غطاءك فبفرك اليوم حديد﴾ [ق: ٢٢] ومن رحمة الله سبحانه وتعالى لعباده أن أرسل إليهم مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبي يعلمون

(١) كيمياء السعادة: تهذيب النفس باجتناب الرذائل وتركيتها عنها، واكتساب الفضائل وتحليتها بها.

وقد عرف الجرجاني أيضاً كيمياء العوام وكيمياء الخواص. فكيمياء العوام هي استبدال المتاع الأخرى الباقي بالحطام الدنيوي الفاني. وكيمياء الخواص هي تخلص القلب عن الكون باستئثار المكون. (انظر كتاب التعريفات للجرجاني - ص ١٨٩ - طبعة دار الكتب العلمية - بيروت).

(٢) كيمياء السعادة هذه موجودة - كما قال الغزالي - في خزائن الله سبحانه، لذلك فلا يمكن الحصول عليها إلا بواسطة النبي ﷺ، فهو الذي بلغ الوحي وأثار الطريق. والاتجاه الكلي إلى حضرة النبي ﷺ، واستحضار ذاته ومثاله في الأذكار والأفعال هو الكليل بتهذيب النفس عند الخاصة والعامّة. أما أخذ هذه الكيمياء عن بعض كبار الشيوخ والعارفين، فهو أخذ غير مأمون والمواقب، لأن انتفاع المرادين من الشيوخ محدود بمدى معارف هؤلاء الشيوخ وأسرارهم، ولا قد يعترى هؤلاء العارفين من عوارض دنيوية مصحوبة بالن على المرید أو بالنفس عليه، بما قد يؤدي إلى تعثر الطريق أمام السالك. ولكن النبي ﷺ معصوم وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، فالأخذ منه هو الطريق الأسلم، واستحضاره فيما هو الضمان الأثبت بلوغ المراد.

(٣) البهوج: الباطل.

(١) الكور: بحرة الحداد. ويعني قوله: ويجعلون القلب في كور المجاهدة، أي يطهرونه بالمجاهدة كما يظهر الحداد الحديد من الصدأ بالنار.

الملائكة في مشاهدة جمال الحضرة الربوبية وليس للغضب والشهوة إليهم طريق، فإن كنت من جوهر الملائكة فاجتهد في معرفة أصلك حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الإلهية، وتبلغ إلى مشاهدة الجلال والجمال، وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب، وتعلم أن هذه الصفات لأي شيء ركبت فيك، فما خلقها الله تعالى لتكون أسيرها ولكن خلقها حتى تكون أسراك، وتسخرها للسفر الذي قدامك، وتجهل إحداها مركبك والأخرى سلاحك حتى تصيد بها سعادتك، فإذا بلغت غرضك فقاوم بها تحت قدميك، وارجع إلى مكان سعادتك، وذلك المكان قرار خواص الحضرة الإلهية، وقرار العوام درجات الجنة، فنتجح إلى معرفة هذه المعاني حتى تعرف من نفسك شيئاً قليلاً، فكل من لم يعرف هذه المعاني فنصيبه من القشور، لأن الحق يكون عنه محجوباً.

### فصل

إذا شئت أن تعرف نفسك فاعلم أنك من شيئين: الأول هذا القلب، والثاني يسمى النفس والروح. والنفس هو القلب الذي تعرفه بعين الباطن. وحقيقته الباطن؛ لأن الجسد أول وهو الآخر والنفس آخر وهو الأول؛ ويسمى قلباً، وليس القلب هذه القطعة اللحمية التي في الصدر من الجانب الأيسر، لأنه يكون في الدواب والموتى. وكل شيء تبصره بعين الظاهر فهو من هذا العالم الذي يسمى عالم الشهادة، وأما حقيقة القلب فليس من هذا العالم، لكنه من عالم الغيب فهو في هذا العالم غريب، وتلك القطعة اللحمية مركبة، وكل أعضاء الجسد عساكره وهو الملك، ومعرفة الله ومشاهدة جمال الحضرة صفاته، والتكليف عليه والخطاب معه، وله التواب وعليه العقاب، والسعادة والشقاء تلحقانه والروح الحيواني في كل شيء تبعه ومعه. ومعرفة حقيقته ومعرفة صفاته مفتاح معرفة الله سبحانه وتعالى، فملك بالمجاهدة حتى تعرفه لأنه جوهر عزيز من جنس جوهر الملائكة، وأصل معدنه من الحضرة الإلهية، من ذلك المكان جاء وإلى ذلك المكان يعود.

## فصل في معرفة النفس

اعلم أن مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وسرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ [فصلت: ٥٢] وقال النبي ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»<sup>(١)</sup> وليس شيء أقرب إليك من نفسك، فإذا لم تعرف نفسك فكيف تعرف ربك؟

فإن قلت إني أعرف نفسي، وإنما تعرف الجسم الظاهر الذي هو اليد والرجل والرأس والجنة، ولا تعرف ما في باطنك من الأمر الذي به إذا غضبت طلبت الخصومة، وإذا اشتهيت طلبت النكاح، وإذا جمعت طلبت الأكل، وإذا عطشت طلبت الشرب؛ والدواب تشاركك في هذه الأمور، فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة حتى تدري أي شيء أنت، ومن أين جئت إلى هذا المكان، ولأي شيء خلقت، وبأي شيء سعادتك، وبأي شيء شقاؤك.

وقد جمعت في باطنك صفات، منها صفات البهائم، ومنها صفات السباع، ومنها صفات الملائكة؛ فالروح حقيقة جوهر كغيرها غريب منك وعارية عندك، فالواجب عليك أن تعرف هذا، وتعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة؛ فإن سعادة البهائم في الأكل والشرب والنوم والنكاح، فإن كنت منهم فاجتهد في إعمال الجوف والفرج. وسعادة السباع في الضرب والفتك، وسعادة الشياطين في المكر والشتر والحيل، فإن كنت منهم فاشتغل باشتغالهم. وسعادة

(١) قال أبو المنذر بن السعدي في القواطع: إنه لا يعرف مرفوعاً، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي؛ يعني من قوله. وقد وضع الحافظ السيوطي فيه تأليفاً ساه والقول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه.

## فصل

أما سؤالك ما حقيقة القلب، فلم يجيء في الشريعة أكثر من قول الله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] لأن الروح جزء من جملة القدرة الإلهية وهو من عالم الأمر، قال الله عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فالإنسان من عالم الخلق من جانب، ومن عالم الأمر من جانب، فكل شيء يجوز عليه المساحة والقدر والكيفية فهو من عالم الخلق<sup>(١)</sup>؛ وليس للقلب مساحة ولا مقدار، ولهذا لا يقبل القسمة، ولو قبل القسمة لكان من عالم الخلق، وكان من جانب الجهل جاهلاً ومن جانب العلم علماً، وكل شيء يكون فيه علم وجهل فهو محال. وفي معنى آخر هو من عالم الأمر؛ لأن عالم الأمر عبارة عن شيء من الأشياء لا يكون للمساحة والتقدير طريق إليه. وقد ظن بعضهم أن الروح قديم فغلطوا. وقال قوم إنه عرّض فغلطوا، لأن العرض لا يقوم بنفسه ويكون تابعاً لغيره. فالروح هو أصل ابن آدم، وقال ابن آدم نبع له، فكيف يكون عرضاً وقال قوم إنه جسم فغلطوا، لأن الجسم يقبل القسمة. فالروح الذي سميناه قلباً وهو محل معرفة الله تعالى ليس بجسم ولا عرض بل هو من جنس الملائكة.

ومعرفة الروح صعبة جداً<sup>(٢)</sup>، لأنه لم يرد في الدين طريق إلى معرفته لأنه لا (١) سئل القحطبي عن الروح فقال: لم يدخل تحت ذل كين. ومعناه عنده أنه ليس إلا الإحياء، والحي والإحياء صفة المحيي، كالتخليق وإطلاق صفة الخالق. واستدل من قال ذلك بظاهر قوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾. قالوا: أمره كلامه، وكلامه ليس بمخلوق. كأنهم قالوا: إنما صار الحيّ حيّاً بقوله كين حيّاً، وليس الروح معنى في الجسد حالاً مخلوق كالجسد. (انظر التعرف للمذهب أهل التصوف للكلاباذي - ص ٦٨ - دار الكتب العلمية - بيروت).

(٢) قال الجنبدي: الروح شيء استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحداً من خلقه، ولا يجوز العبارة عنه بأكثر من موجود، لقوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وقال أبو عبد الله النجاشي: الروح جسم يطلع عن الحسن، ويكبر عن اللبس، ولا يبر عنه بأكثر من موجود.

حاجة في الدين إلى معرفته، لأن الدين هو المجاهدة والمعرفة علامة الهداية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [المنكوت: ٦٩] ومن لم يجتهد حتى اجتهاده لم يجر أن يتحدث معه في معرفة حقيقة الروح. وأول أسس المجاهدة أن تعرف عسكر القلب، لأن الإنسان إذا لم يعرف العسكر لم يصح له الجهاد.

## فصل

اعلم أن النفس مركب القلب، وللقب عساكر كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] والقلب مخلوق لعمل الآخرة طلباً لسعادته، وسعادته معرفة ربه عز وجل، ومعرفة ربه تعالى تحصل له من صنع الله وهو من جملة عاله. ولا تحصل له معرفة عجائب العالم إلا من طريق الحواس، والحواس من القلب والقلب مركبة، ثم معرفة صيده ومعرفة شبكته، والقلب لا يقوم إلا بالطعام والشراب والحرارة والرطوبة، وهو ضعيف على خطر من الجوع والعطش في الباطن، وعلى خطر من الماء والنار في الظاهر، وهو مقابل أعداء كثيرة.

= ولكن قال الدهلوي في الحجة: قول الله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية ليست نصّاً في أنه لا يعلم أحد من الأمة حقيقة الروح كما يظن، وليس كل ما سكنت عنه الشرع لا يمكن معرفته البتة، بل كثيراً ما يسكت عنه لدقته على العامة وإن أمكن معرفته للخاصة. قال: واعلم أن الروح أو ما يدرك من حقيقتها أنها مبدأ الحياة في الحيوان، وأنه يكون حيّاً بنفخ الروح فيه ويكون ميتاً بفارقتها له، ثم إذا أمعن في التأمل يتجلى أن البدن بخار لطيف متولد في القلب من خلاصة الأبخراط يحمل القوة الحساسة والحركة والدبيرة، وتختلف هذه القوة الحساسة باختلاف رقة هذا البخار وغلظته وصفائه وكدره، ومثل هذا البخار في البدن مثل ماء البورد في الورد، وكمثل النار في معنى الفحم. ثم إذا أمعن في النظر أيضاً انجلي أن هذا الروح مطبوعة الروح الحقيقية ومادة لتعلقها، فالشيء الذي هو به ليس هذا الروح ولا هذا البدن، بل الروح في الحقيقة حقيقة فردانية ونقطة نورانية لما تعلق بالروح المتكون من صفة الزواج، والحيوية الناشئة عن التفاعل الكيميائي الناتج من الغذاء.

## فصل

وتحتاج أن تعرف العسكريين؛ وذلك أن المسكر الظاهر هو الشهوة والغضب ومنازلم في اليمين والرجلين والمعينين والأذنين وجميع الأعضاء؛ وأما المسكر الباطن فمنازله في الدماغ وهو قوى الخيال والتفكير والحفظ والتذكر والوهم، ولكل قوة من هذه القوى عمل خاص، فإن ضعف واحد منهم ضعف حال ابن آدم في الدارين. وجملة هذين العسكريين في القلب وهو أميرها، فإن أمر اللسان أن يذكر ذكر، وإن أمر اليد أن تبطش ببطشت، وإن أمر الرجل أن تسمى سعت، وكذلك الحواس الخمس حتى يحفظ نفسه كما يدخر الزاد للدار الآخرة ويحصل الصيد وتم التجارة ويجمع بذر السعادة، وهؤلاء طائعون للقلب كما أن الملائكة طائعون للرب سبحانه وتعالى لا يخالفون أمره.

## فصل في معرفة القلب وعسكره

اعلم أنه قيل في المثل المشهور: إن النفس كالمدينة، واليدين والقديمين وجميع الأعضاء ضياعها، والقوة الشهوانية واليها، والقوة الغضبية شحنتها، والقلب ملكها، والعقل وزيرها. والملك يدبرهم حتى تستقر مملكته وأحواله، لأن الوالي وهو الشهوة، كذاب فقبولي مخلط، والشحنة وهو الغضب شرير قتال خراب، فإن تركهم الملك على ما هم عليه هلكت المدينة وخرت. فيجب أن يشاور الملك الوزير ويجعل الوالي والشحنة تحت يد الوزير، فإذا فعل ذلك استقرت أحوال المملكة وتعمرت المدينة. وكذلك القلب يشاور العقل ويجعل الشهوة والغضب تحت حكمه حتى تستقر أحوال النفس ويصل إلى سبب السعادة من معرفة الحضرة الإلهية، ولو جعل العقل تحت يد الغضب والشهوة هلكت نفسه وكان قلبه شقيًا في الآخرة.

## فصل

اعلم أن الشهوة والغضب خادمان للنفس جاذبان، يحفظان أمر الطعام والشراب والنكاح لحمل الحواس. ثم النفس خادم الحواس شبكة العقل وجواسيسه يبصر بها صنائع الباري، جلت قدرته، ثم الحواس خادم العقل وهو القلب سراج وشمعة يبصر بنوره الحضرة الإلهية، لأن الجنة وهي نصيب الجوف أو الفرج محتقرة في جنب تلك الجنة. ثم العقل خادم القلب، والقلب مخلوق لنظر جمال الحضرة الإلهية. فمن اجتهد في هذه الصنعة فهو عبد حق من غلمان الحضرة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦] معناه أنا خلقنا القلب وأعطيناه الملك والمسكر، وجعلنا

فيهلك، أو تزيد قوة الغضب فتخرجه إلى الحمق فيهلك، فإذا توسطت القوتان بإشارة قوة العدل دل على طريق الهداية. وكذلك الغضب إذا زاد سهل عليه الضرب والقتل، وإذا نقص ذهب الغيرة والحمية في الدين والدنيا، وإذا توسط كان الصبر والشجاعة والحكمة. وكذا الشهوة إذا زادت كان الفسق والفجور، وإن نقصت كان العجز والفتور، وإن توسطت كان العفة والقناعة وأمثال ذلك.

## فصل

اعلم أن للقلب مع عسكره أحوالاً وصفات بعضها يسمى أخلاق السوء، وبعضها أخلاق الحسن، فبالأخلاق الحسنة يبلغ درجة السعادة، والأخلاق السيئة هلاكه وخروجه للشقاء. وهذه كلها<sup>(١)</sup> تبلغ أربعة أجناس: أخلاق الشياطين، وأخلاق البهائم، وأخلاق السباع، وأخلاق الملائكة. فأعمال السوء من الأكل والشرب والنوم والكباح هي أخلاق البهائم، وكذلك أعمال الغضب من الضرب والقتل والخصومة هي أخلاق السباع، وكذلك أعمال النفس وهي المكر والحيلة والغش وغير ذلك هي أخلاق الشياطين، وكذلك أعمال العقل التي هي الرحمة والعلم والخير هي أخلاق الملائكة.

= الماعلة. وكما تأتمر النسان الشهوانية والغضبية بأوامر النفس الماعلة، وكذلك يجب أن يخضع العمال والمخاريبون للحكام الذين يجب أن يكونوا من الفلاسفة برأيهم. ومن بين المسلمين نجد الفارابي وقد وضع تقسماً مشابهاً لتقسيم أفلاطون، وقد وضع الفارابي آراءه هذه في كتاباته السياسية، ولا سيما كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» الذي حدنا فيه حذو أفلاطون في مواضع، ووجد في مواضع أخرى. والفرابي هنا يتبع نفس التقسيم الثلاثي لقوى النفس - بعد أن شبه النفس بالمدينة كما ذكر آنفاً - ثم يبين أن الخير في القرنين الشهوانية والغضبية أن يكون أمرها متوسطاً، لا إفراط ولا تفريط، تبعاً للقول المأثور «خير الأمور أوسطها». والقوة الماعلة، أو قوة العلم، هي المؤهلة لرد شيطانها إلى التوسط، لا لما من سلطة أمره عليها.

(١) أي الأخلاق السيئة والأخلاق الحسنة معاً.

النفس مركبه حتى يسافر عليه من عالم التراب إلى أعلى عليين، فإذا أراد أن يؤدي حق هذه النعمة جلس مثل السلطان في صدر مملكته، وجعل الحضرة الإلهية قبلته ومقصده، وجعل الآخرة وطنه وقراره، والنفس مركبه، والدنيا منزلها، واليدين والقدمين خدامها، والعقل وزيره، والشهوة عامله، والغضب شحنته، والحواس جواسيسه. وكل واحد موكل بعالم من العوالم يجمع له أحوال العوالم. وقوة الخيال في مقدم الدماغ كالنقيب يجمع عنده أخبار الجواسيس، وقوة الحفظ في وسط الدماغ مثل صاحب الخريطة<sup>(١)</sup> يجمع الرقاع من يد النقيب<sup>(٢)</sup> ويحفظها إلى أن يعرضها على العقل، فإذا بلغت هذه الأخبار إلى الوزير يرى أحوال المملكة على مقتضاها.

فإذا رأيت واحداً منهم قد عصى عليك مثل الشهوة والغضب، فمليك بالمجاهدة، ولا تقصد قتلها؛ لأن الملكة لا تستقر إلا بهما. فإذا فعلت ذلك كنت سعيداً، وأديت حق النعمة، ووجبت لك الخلة في وقتها، وإلا كنت شقيماً ووجب عليك النكال والعقوبة.

## فصل

تمام السعادة مبني على ثلاثة أشياء: قوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العلم<sup>(٣)</sup>، فيحتاج أن يكون أمرها متوسطاً لتلا تزيد قوة الشهوة فتخرجه إلى الرخص

(١) الخريطة: وعاء من جلد أو نحوه يُشدُّ على ما فيه.

(٢) النقيب: كبير القوم المعني بشؤونهم.

(٣) كان أول من حدد وظائف النفس بشكل منهجي في العالم القديم الفيلسوف اليوناني أفلاطون، الذي جعل للنفس ثلاث قوى: القوة الشهوانية والقوة الغضبية والقوة الماعلة، وجعل النفس الشهوانية والنفس الغضبية تابعتين وخادمتين للنفس الماعلة. وقد شبه أفلاطون الإنسان وقواه وعناصره المختلفة بالمدينة الفاضلة التي كان يسمى إلى تأسيسها، حيث جعل سكان مدينته ثلاث طبقات: طبقة العمال وطبقة المخاريبون وطبقة الحكام، فجعل طبقة العمال مقابلة للنفس الشهوانية في الإنسان، وطبقة المخاريبون مقابلة للنفس الغضبية، وطبقة الحكام مقابلة للنفس

## فصل

واعلم أن الإنسان في صورة ابن آدم اليوم، وغداً تنكشف له المعاني فتكون الصور في معنى المعاني؛ فأما الذي غلب عليه الغضب فيقوم في صورة الكلب، وأما الذي غلب عليه الشهوة فيقوم في صورة الخنزير؛ لأن الصور تابعة للمعاني، وإنما يبصر النائم في نومه ما صح في باطنه. وإنما عرفت أن الإنسان في باطنه هذه الأربعة، فيجب أن يراقب حركاته وسكناته، ويعرف من أي الأربعة هو، فإن صفاته تحصل في قلبه وتبقى معه إلى يوم القيامة، وإن بقي من جملة الباقيات الصالحات شيء فهو بذر السعادة، وإن بقي معه غير ذلك فهو بذر الشقاء، وابن آدم لا ينفك ولا ينفصل عن حركة أو سكون، وقلبه مثل الزجاج. وأخلاق السوء كالذخاں والظلمة، فإذا وصل إليه ذلك أظلم عليه طريق السعادة. وأخلاق الحسن كالنور والضوء، فإذا وصل إلى القلب طهره من ظلم المعاصي كما قال رسول الله ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»<sup>(١)</sup>. والقلب إما مضيء أو مظلم، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم.

## فصل

واعلم أن الشهوة والغضب اللتين في البهائم جعلتا أيضاً في ابن آدم، ولكنه أعطي شيئاً آخر<sup>(٢)</sup> زيادة عليها للشرف والكمال، وبذلك تحصل له معرفة الله

(١) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اتق الله حينما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن». رواه الترمذي في كتاب البر والصلة باب ٥٥ وصححه، والدارمي في الرقائق باب ٧٤، والإمام أحمد في المسند ج ٥ ص ١٥٣. وروى الإمام أحمد (ج ٥ ص ٢٢٨، ٢٣٦) عن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «يا معاذ أتبع السيئة بالحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن».

(٢) يعني القوة العاقلة.

## فصل

واعلم أن في جلد ابن آدم أربعة أشياء: الكلب، والخنزير، والشيطان، والمَلَك. والكلب مدموم في صفاته، وليس بمدموم في صورته. وكذلك الشيطان والملائكة ذمهم ومدحهم<sup>(١)</sup> في صفاتهم، وليس ذلك في صورهم وخلقهم. وكذلك الخنزير مدموم في صفاته، وليس بمدموم في خلقته.

وقد أمر ابن آدم بأن يكشف ظلم الجهل بنور العقل خوفاً من الفتنة كما قال النبي ﷺ: «ما من أحد إلا وله شيطان ولي شيطان، وإن الله قد أعانني على شيطاني حتى ملكته»<sup>(٢)</sup> وكذلك الشهوة والغضب ينبغي أن يكونا تحت يد العقل، فلا يفعل شيئاً إلا بأمره، فإن فعل ذلك صح له حسن الأخلاق، وهي صفات الملائكة وهي بذر السعادة. وإن عمل بخلاف ذلك فخدم الشهوة والغضب صح له الأخلاق القبيحة، وهي صفات الشياطين وهو بذر الشقاء، فيتبين له في نومه كأنه قائم مشدود الوسط يخدم الكلب والخنزير، وكان مثله كمثل رجل مسلم يأخذ رجالاً مسلمين يجسهم عند كافورين. فكيف يكون حالك يوم القيامة إذا حبست الملك وهو العقل تحت يد الشهوة والغضب وهما الكلب والخنزير؟

(١) أي ذم الشياطين ومدح الملائكة؛ لأن الشياطين تدم فقط ولا تمدح، والملائكة تمدح فقط ولا تدم.

(٢) روى مسلم في صحيحه، كتاب صفة المنافقين وأحكامهم، حديث رقم ٧٠، والإمام أحمد في المسند ج ٦ ص ١١٥، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خرج من عندهما ليلاً، قالت: فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: «مالك يا عائشة أغرت؟»، فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مناك؟ فقال رسول الله ﷺ: «أقد جاءك شيطانك؟»، قالت: يا رسول الله أومعي شيطان؟ قال: «نعم، قلت: ومع كل إنسان؟ قال: «نعم، قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: «نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم».

تعالى، وجملة عجائب صنعه، وبه يخلص نفسه من يد الشهوة والغضب وتحصل له صفات اللائكة، ولذلك يظفر بالسباع والبهائم وتصير كلها مسخرة له كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً﴾ [الجن: ١٣].

## فصل في عجائب القلب

اعلم أن للقلب باين للعلوم: واحد للأحلام، والثاني لعالم اليقظة، وهو الباب الظاهر إلى الخارج؛ فإن نام غلق باب الحواس، فيفتح له باب الباطن، ويكشف له غيب من عالم الملكوت ومن اللوح المحفوظ فيكون مثل الضوء، وربما احتاج كشفه إلى شيء من تعبير الأحلام. وأما ما كان من الظاهر فيظن الناس أن به اليقظة وأن اليقظة أولى بالمعرفة مع أنه لا يبصر في اليقظة شيء من عالم الغيب، وما يبصر بين النوم واليقظة أولى بالمعرفة بما يبصر من طريق الحواس.

## فصل

وتحتاج أن تعرف في ضمن ذلك أن القلب مثل المرأة، واللوح المحفوظ مثل المرأة أيضاً؛ لأن فيه صورة كل موجود؛ وإذا قابلت المرأة بمرأة أخرى حلت صور ما في إحداها في الأخرى، وكذلك تظهر صور ما في اللوح المحفوظ إلى القلب إذا كان فارغاً من شهوات الدنيا، فإن كان مشغولاً بها كان عالم الملكوت محجوباً عنه، وإن كان في حال النوم فارغاً من علائق الحواس طالع جواهر عالم الملكوت فظهر فيه بعض الصور التي في اللوح المحفوظ، وإذا أغلق باب الحواس كان بعده الخيال، لذلك يكون الذي يبصره تحت ستر القشر، وليس كالحق الصريح مكشوفاً. فإذا مات، أي القلب، يموت صاحبه لم يبق خيال ولا حواس، وفي ذلك الوقت يبصر بغير وهم وغير خيال، ويقال له: ﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ [ق: ٢٢].



## فصل

واعلم أنه ما من أحد إلا ويدخل في قلبه الخاطر المستقيم وبين الحق على سبيل الإلهام، وذلك لا يدخل من طريق الخواس بل يدخل في القلب لا يعرف من أين جاء؛ لأن القلب من عالم الملكوت، والخواس مخلوقة لهذا العالم - عالم الملك - فلذلك يكون حجابها عن مطالعة ذلك العالم إذا لم يكن فارغاً من شغل الخواس:

## فصل

ولا تظن أن هذه الطاقة تنفتح بالنوم والموت فقط، بل تنفتح باليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة، وتخلص من يد الشهوة والغضب والأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة. فإذا جلس في مكان خال وعطل طريق الخواس، وفتح عين الباطن وسمعه، وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت، وقال دائماً: «الله الله الله» بقلبه دون لسانه، إلى أن يصير لا خسر معه من نفسه ولا من العالم، ويبقى لا يرى شيئاً إلا الله سبحانه وتعالى<sup>(١)</sup>، انفتحت تلك الطاقة، وأبصر في اليقظة

(١) هذه هي الغيبة عن الصوفية. وهي كما عرفها الجرجاني في التعريفات ص ١٦٣: غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق، بل من أحوال نفسه بما يرد عليه من الحق إذا عظم الوارد واستولى عليه سلطان الحقيقة، فهو حاضر بالحق، غائب عن نفسه وعن الخلق. وما يشهد على هذا قصة النسوة اللاتي قطعن أيديهن حين شاهدن يوسف، فإذا كانت مشاهدة جمال يوسف مثل هذا، فكيف يكون غيبة مشاهدة أنوار ذي الجلال؟ اهـ. أما الغناء عند الصوفية فهو الاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق. قال الكلاباذي في «التعرف لذهب أهل التصوف»، ص ١٢٣: الغناء هو أن يفتى عنه المخطوط، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، ويسقط عنه التمييز، فناء عن الأشياء كلها شغلاً بما فنى به كما قال عامر بن عبد الله: ما أبالي امرأة أريت أم حاططاً! والدكر يودي إلى الغناء، قيل للجنيب: إن أبا الحسين الثوري قائم في مسجد الشونيزي منذ أيام لا يأكل ولا يشرب ولا ينام وهو يقول: الله الله، ويعمل الصلوات =

الذي يبصره في النوم، فتظهر له أرواح الملائكة والأنبياء، والصور الحسنة الجميلة الجميلة، وانكشف له ملكوت السموات والأرض، ورأى ما لا يمكن شرحه ولا وصفه كما قال النبي ﷺ: «زُويت<sup>(١)</sup> لي الأرض فربيت مشارقها ومغاربها»<sup>(٢)</sup> وقال الله عز وجل: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾ [الأنعام: ٧٥] لأن علوم الأنبياء عليهم السلام كلها كانت من هذا الطريق لا من طريق الخواس كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تنبيلاً﴾ [المزمل: ٨] معناه الانقطاع عن كل شيء، وتطهير القلب من كل شيء، والابتهاج إليه سبحانه وتعالى بالكليّة؛ وهو طريق الصوفية في هذا الزمان. وأما طريق التعلم فهو طريق العلماء، وهذه الدرجة الكبيرة مختصرة من طريق النبوة، وكذلك علم الأولياء لأنه وقع في قلوبهم بلا واسطة من حضرة الحق كما قال سبحانه وتعالى: ﴿آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علماً﴾ [الكهف: ٦٥] وهذه الطريقة لا تفهم إلا بالتجربة، وإن لم تحصل

= لأوقاتها، فقال بعض من حضره إنه صاح، فقال الجنيب: لا، ولكن أرباب المواجه محفظون بين يدي الله في سراجيدهم، فإن رَدَّ الناساني إلى الأوصاف لم يرد إلى أوصاف نفسه، ولكن يقام مقام البقاء بأوصاف الحق.

وأشدوا في الغناء:

ذكرنا وما كنا لننسى فنذكرُ . ولكن نسيم القسرب يسدو فيهبُرُ  
فأفقسى به عني وأبقسى به له . إذا الحق عنـــــــــــــــــه مخبُرُ ومبُتُرُ

(١) أي جمعت وقبضت.

(٢) عن ثوربان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أممي سيلغ ملكها ما زوي لي منها.... الحديث. رواه مسلم في الفتن حديث رقم ١٩، وأبو داود في الفتن باب ١، والترمذي في الفتن باب ١٤، وابن ماجه في الفتن باب ٩، والإمام أحمد في مسنده ج ٥ ص ٢٧٨، ٢٨٤. ورواه أحمد أيضاً (ج ٤ ص ١٢٣) من حديث شداد بن أوس عنه ﷺ.

## فصل

### في أن اللذة والسعادة لابن آدم في معرفة الله سبحانه وتعالى

اعلم أن سعادة كل شيء ولذته وراحته ولذة كل شيء تكون بمقتضى طبيعه، وطبع كل شيء، ما خلق له؛ فلذة العين في الصور الحسنة، ولذة الأذن في الأصوات الطيبة، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة؛ ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى، لأنه مخلوق لها. وكل ما لم يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به، مثل الشطرنج<sup>(١)</sup> إذا عرفها فرح بها، ولو نهي عنها لم يتركها ولا يبقى له عنها صبر. وكذلك إذا وقع في معرفة الله<sup>(٢)</sup>

(١) لذة أصل هندي، تلب على رقعة من أربعة وستين مربعاً، ومثل دولتين متحاربتين بانتين وثلاثين قطعة تمثل الملكين والوزيرين والخيالة والقلاع والغيبة والجنود.

(٢) أجمع التصوفة على أن معرفة الله تعالى لا تتم بالعقل، فالدليل عندهم على الله هو الله وحده، وسبيل العقل عندهم سبيل العاقل في حاجته إلى الدليل، لأنه محدث، والمحدث لا يدل إلا على مثله. وقال رجل للنوري: ما الدليل على الله؟ قال: الله. قال: فما العقل؟ قال: العقل عاجز، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله.

وقال ابن عطاء: العقل آلة للمبودية لا للإشراق على الربوبية. وقال غيره: العقل يحول حول الكون، فإذا نظر إلى المكون ذاب.

وأشدوا لبعض الكبار:

من رامه بالمعقل مسترشداً  
يقول من حميته هل هو

وقال آخر من أهل المعرفة:

لم يبتق بيني وبين الحق تبياني  
ولا دليل ولا آيات برهواني  
هذا تجلّي طلوع الحق نائبة  
قد أزهرت في تلالها سلطان  
لا يعرف الحق إلا من عرفته  
لا يعرف القيدسي المحدث الفاني  
لا يتبدل على الباري بصنعه  
رأيت حدثاً يني عن أركان  
كان الدليل له منه إليه به  
من شاهد الحق في تنزيل فرقان  
كان الدليل له منه به وله  
حماً وجدناه بل علماً بتبيان

بالذوق لم تحصل بالتعليم<sup>(١)</sup>؛ والواجب التصديق بها حتى لا تحرم شعاع سعادتهم، وهو من عجائب القلب. ومن لم يبصر لم يصدق كما قال سبحانه وتعالى: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾ [يونس: ٣٩] وقوله: ﴿وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾ [الأحقاف: ١١].

## فصل

ولا تحسب أن هذا خاص بالأنبياء والأولياء؛ لأن جوهر ابن آدم في أصل الخلقة موضوع لهذا كالتحديد لأن يعمل منه مرآة ينظر فيها صورة العالم، إلا الذي صدأ فيحتاج إلى إجلاء، أو جذب فيحتاج إلى صقل أو سبك، لأنه قد تلف، وكذلك كل قلب إذا غلب عليه الشهوات والمعاصي لم يبلغ هذه الدرجة، وإن لم تغلب عليه تلك الدرجة كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على فطرة الإسلام»<sup>(٢)</sup> وقال الله تعالى: ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾ [الأعراف: ١٧٢] وكذلك بنو آدم في فطرتهم التصديق بالربوبية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ [الروم: ٣٠] والأنبياء والأولياء هم بنو آدم، قال سبحانه وتعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ [فصلت: ٦] فكل من زرع حصد، ومن مشى وصل، ومن طلب وجد. والطالب لا يحصل إلا بالمجاهدة - طلب شيخ بالغ عارف قد مشى في هذا الطريق - وإذا حصل هذان الشيطان لأحد أزراد الله له التوفيق والسعادة بحكم أزي حتى يبلغ إلى هذه الدرجة.

(١) وهذا كما آل إليه التصوف بعد عصر الغزالي، حيث أصبح عبارة عن حلقات يتلقى فيها المرشد قوانين التصوف عن بعض الشيخ، فإذا كان الشيخ من العارفين اهدى المرشد على يديه إلى طريق الاستقامة. أما تصوف الغزالي فقد استقامه من هدي النبوة مباشرة دون توسط الشيخ. وهذا النوع من التصوف هو لأصحاب المسم العالية كالغزالي وأمثاله.

(٢) رواه بألفاظ وأساليب مختلفة أحمد ومالك والشيخان وأبو داود والترمذي والدارمي.

السماء، وحواسه مثل الكواكب، وتفصيل ذلك طويل؛ وأيضاً فإن في باطنه صناعات العالم، لأن القوة التي في المعدة كالطباخ، والتي في الكبد كالخيار، والتي في الأمعاء كالقصار<sup>(١)</sup>، والتي تبيض اللبن وتحمض الدم كالصباغ. وشرح ذلك طويل، والمقصود أن تعلم كم في باطنك من عوالم مختلفة كلهم مشغولون بخدمتك، وأنت في غفلة عنهم، وهم لا يستريحون، ولا تعرفهم أنت ولا تشكر من أنعم عليك<sup>(٢)</sup>.

## في معرفة تركيب الجسد ومنافع الأعضاء التي يقال عنها في علم التشريح

وهو علم عظيم، والخلق غافلون عنه، وكذلك علم الطب. فكل من أراد أن ينظر في نفسه وعجائب صنع الله تعالى فيها، يحتاج إلى معرفة ثلاثة أشياء من الصفات الإلهية:

**الأولى:** أن يعرف أن خالق الشخص قادر على الكمال وليس بعاجز، وهو الله سبحانه وتعالى. وليس عمل في العالم بأعجب من خلق الإنسان من ماء مهين، وتصوير هذا الشخص بهذه الصورة العجيبة كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه﴾ [الإنسان: ٢]. فأعادته بعد الموت أهون عليه؛ لأن الإعادة أسهل من الابتداء.

**الثانية:** معرفة علمه سبحانه وتعالى وأنه محيط الأشياء كلها؛ لأن هذه المعجائب والغرائب لا يمكن إلا بكمال العلم.

**الثالثة:** أن تعلم أن لطفه ورحمته وعنايته متعلقة بالأشياء كلها، وأنها لا نهاية لها، لما ترى في النباتات والحيوان والمعادن في سعة القدرة وحسن الصور والألوان.

(١) القصار: المبيض لللباب.

سبحانه وتعالى فرح بها<sup>(١)</sup>، ولم يصبر عن المشاهدة، لأن لذة القلب المعرفة، وكلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر؛ ولذلك فإن الإنسان إذا عرف الوزير فرح، ولو علم الملك لكان أعظم فرحاً.

وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى، لأن شرف كل موجود به ومنه، وكل عجائب العالم آثار صنفته، فلا معرفة أعز من معرفته، ولا لذة أعظم من لذة معرفته، وليس منظر أحسن من منظر حضرته. وكل لذات شهوات الدنيا متعلقة بالنفس وهي تبطل بالموت، ولذة معرفة الربوبية متعلقة بالقلب فلا تبطل بالموت؛ لأن القلب لا يهلك بالموت بل تكون لذته أكثر وضوؤه أكبر لأنه خرج من الظلمة إلى الضوء.

## فصل

واعلم أن نفس ابن آدم مختصرة من العالم، وفيها من كل صورة في العالم أثر منه؛ لأن هذه العظام كالجبال، ولحمه كالتراب، وشعره كالنبات، ورأسه مثل

= هذا وجردى وتشريحي ومعتدي هذا نوحرد نوحيد وإيماني هذا عبارة أهل الانفراد به ذوي المصارف في سر وإعلان هذا وجود وجود الواجدين له بني التجانس أمحامي وخلاتي وقد أجمعوا أنه لا يعرفه إلا ذو عقل، لأن العقل آلة للمد يعرف به ما عرف، وهو بنفسه لا يعرف الله تعالى.

قال أبو بكر السباك: لما خلق الله العقل قال له: من أنا؟ فسكت. فكلمه بنور الوجدانية ففتح عينيه فقال: أنت الله لا إله إلا أنت.

فلم يكن للعقل أن يعرف الله إلا بالله.

(انظر التعرف لذهب أهل التصوف للكلاباذي ص ٦٣-٦٦).

(١) أي فرح بهذه المعرفة.

## فصل

### في تفصيل خلقه بني آدم لأنها مفتاح معرفة الصفات الإلهية وهو علم شريف

وذلك معرفة عجائب الصنائع الإلهية، ومعرفة عظم الله سبحانه وتعالى وقدرته، وهو مختصر معرفة القلب. وهو علم شريف إذ هو معرفة الصنائع الإلهية، لأن النفس كالفرس، والعقل كالراكب، وجماعها الفارس، ومن لم يعرف نفسه وهو يدعي معرفة غيره فهو كالرجل المفلس الذي ليس له طعام لنفسه وهو يدعي أنه يقوت فقراء المدينة، فهذا محال.

## فصل

إذا عرفت هذا العز والشرف والكمال والجمال والجلال، بعد أن عرفت جوهر القلب أنه جوهر عزيز قد وهب لك وبعد ذلك خفي عنك، فإن لم تطلبه وغفلت عنه وضيعته كان ذلك حسرة عظيمة عليك يوم القيامة؛ فاجتهد في طلبه، واترك أشغال الدنيا كلها! وكل شرف لم يظهر في الدنيا فهو في الآخرة فرح بلا غم، وبقاء بلا فناء، وقدرة بلا عجز، ومعرفة بلا جهل، وجمال وجلال عظيمان؛ وأما اليوم فليس شيء أعجز منه لأنه مسكين ناقص؛ وإنما الشرف غداً إذا طرح من هذه الكيمياء على جوهر قلبه حتى يخلص منه شبه البهائم، ويبلغ درجة الملائكة، فإن رجع إلى شهوات الدنيا فضلت عليه البهائم يوم القيامة لأنها تصير إلى التراب، ويبقى هو في العذاب. نعوذ بالله من ذلك، ونستجير به، وهو نعم المولى ونعم النصير، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

[ تمت كيمياء السعادة وتليها القواعد العشرة ]